بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يضمّ كتاب «المحاسن والمساوى» طائفةً من ضروب الآداب وغرر الكلام؛ وتدور حول النّفس الإنسانيّة وما يتعلّق بها من الصفات والأفعال، وما يعتريها من دوافع الخير، أو نوازع الشرّ؛ وما تنضح به من سرىّ الأخلاق ومحمود الشمائل، أو ما يصدر عنها مما يؤذى المروءة، ويخدش كريم الأحساب؛ وبذلك اجتمع فيه من رائع الشعر ورصين القول، وموروث الخبر والحكمة والمثل؛ ما لم يجتمع فى كتاب، مع تناسب الأبواب، وتقسيم الفصول، وإحكام الوضع، وجمال التصنيف.

ومع طول البحث فى كتب السير والتراجم، وتقصّى أسفار التاريخ والطبقات؛ فإنه لا يعلم شىء عن مؤلف الكتاب؛ سوى أن اسمه «إبراهيم بن محمد البيهقى»؛ كما جاء فى المقدّمة وصفحة العنوان، وكما نقل عنه الدميرىّ فى حياة الحيوان؛ عند الكلام على خلافة عبد الملك بن مروان[1]؛ وأنه كان يعيش فى زمن المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)؛ كما يفهم من الخبر الذى أورده المؤلف فى باب محاسن المسايرة[2] فى هذا الكتاب، وهو قدر لا يسدّ حاجةً لباحث أو مؤرخ.

ويرجع الفضل الأوّل فى نشر هذا الكتاب وتيسيره لقراء العربية إلى الدكتور فريدريك شوالى؛ أحد المتقدّمين من المستشرقين الألمان؛ ممن عُنوا بنشر النفيس من تراث العرب الخالد. حقّقه؛ وطبعه فى سنة ١٩٠٢، بمطبعة جيسن؛ ووضع له مقدّمة باللغة الألمانية؛ وذيّله بحواشٍ ومقابلات باللغة اللاتينية؛ وقد بذل جهدًا يشكر، وقام بعمل يذكر.

وفى سنة ١٩٢٥ قام المستشرق الألمانى أشر بعمل فهارس له مفصّلة؛ كتبها بخطّ، ثم صورت بالزنكغراف؛ وعملت منها نسخ محدودة، لم تعرف إلّا فى دائرة ضيّقة عند العلماء المستشرقين بأوربا[2].

وعن هذه الطبعة أعيد نشره. بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٠٦، بعد حذف المقدّمة والتعليقات.

وأساس العمل الذى قام به شوالى مخطوطتان:

---

(١) نشرة القاهرة سنة ١٢٨٤هـ.

(٢) الدراسات العربية فى أوربا لجوهان فوك ص٣١٥ طبع ليبزج سنة١٩٥٥.

إحداهما نسخة بمكتبة جامعة ليدن، محفوظة برقم ٢٠٧١، تقع فى ٢٩٤ صفحة، وتنقص من أوّلها بمقدار ٣٠ صفحة، ومن آخرها بمقدار صفحتين؛ مكتوبة بخطٍّ معتاد؛ ويبدو أن ناسخها على شىء من المعرفة بأصول النسخ، وعنوانات الفصول فيها بخط أكبر، ومتوسط الأسطر فيها ٢٣ سطرًا، ومتوسط عدد الكلمات ١٨ كلمة، وقد رمز إليها بالحرف (L).

والنسخة الثانية محفوظة بمكتبة الجمعية الآسيوية البنغالية فى كلكتا، وهى نسخة يبدو أن بآخرها نقصًا؛ إذ أن الناسخ قد أضاف عند نهاية ما وقف عليه من نسخة الأصل التى نقل عنها عبارة الختام، مما يوهم أنها كاملة؛ وقد أتمها نسخًا فى ١٣ ربيع الأول سنة ١٦٠ هـ ؛ وتقع فى ٢١٩ ورقة، متوسط الأسطر فيها ٣٠ سطرًا، ومتوسط الكلمات ١٢ كلمة، وقد رمز إليها بالحرف (C).

وحينما قصدت إلى إعادة تحقيق هذا الكتاب، اتخذت نشرة شوالى أصلًا، واستأنست بنسختين مصوّرتين عن الأصلين اللذين رجع إليهما، ورمزت إلى المطبوعة بالحرف (ط)، وإلى نسخة ليدن بالحرف (ل)، وإلى نسخة كلكتا بالحرف (ك).

كما أنى رجعت إلى كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعراء ومعاجم اللغة، واستعنتُ بكلّ ذلك على إيضاح المبهم، وردّ المحرّف، وشرح الغريب، مما تراه فى حواشى الكتاب.

وكان من أهم الكتب التى أفدت منها فى هذا السبيل، كتاب «المحاسن والأضداد» المنسوب إلى الجاحظ (فان فلوتن)[1]. والكثير من نصوص الكتابين تكاد تكون متّحدة، والأخبار مشتركة، مما يحمل على الظن أن مؤلفهما واحد، أو أنهما كتابان أُخذا عن أصلٍ مشترك.

وأرجو بما قمت به من الشرح والتعليق وما صنعته من الفهارس المتنوّعة، أن يكون الكتاب قد أصبح قريب الجنى، دانى القطوف.

كما أرجو أن يكون عملًا للناس نافعًا، وعند المولى سبحانه مقبولًا.

١٨ شوال سنة ١٣٨٠ هـ

٤ أبريل سنة ١٩٦١ م.

محمد أبو الفضل إبراهيم

---

(١) طبع فى ليدن سنة ١٨٩٨م.

وبه الأمان من الخذلان

الحمدُ لله ربِّ العالمين، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله على محمد النبيّ الأمّيّ الهاشِميّ الأبطَحِيّ، المكّيّ المَدنيّ، الهادى المهديّ، السِّراج المضيء، والقمر المنير، التّقيّ النّقيّ؛ وعلى أهل بيته الطّيّبين الأخيار، السّادةِ الأطهار، المقسِطين[1] الأبرار، الّذين خُلقوا من طينةٍ واحدة؛ وجُبِلوا على فطرتِه، ودَرَجوا على حَوْزتِه، ومُيِّزوا بِحكْمَتِه، و [ساروا][2] على منهاجه وملّته، وفازوا بطاعته؛ وسَلّم تسليمًا كَثيرًا دائمًا.

قال الشيخ إبراهيم بن محمد البَيْهَقِيّ: قال مُصعب بنُ الزُّبَيْر: إنّ الناس يتحدَّثون بأحسن ما يَحْفظُون، ويحفظون أحسن ما يكتُبون، ويكتبُون أحسنَ ما يسمعون، فإذا أخذتَ الأدبَ فخُذْه من أفواه الرّجال، فإنّك لا تسمع منهم إلّا مختارًا[3].

وقال لقمانُ لابنه: يابُنَى تنافس[4] فى طلب الأدب، فإنه ميراثٌ غيرُ مسلوب، وقَرِينٌ غيرُ مغلُوبٍ، ونفيسُ حَظٍّ فى النّاس[5] مطلوب.

وقال الزهريّ: الأدبِ ذَكَرٌ لا يُحِبّه الذُّكور من الرجال، ولا يبغضه إلا مؤنّثهم.

وقيل[6]: إذا سمعت أدبًا فاكتبه ولو فى حائط.

قال: وقال المنصور بنُ المهديّ للمأمون: أيَحسُن بِمثلى[7] طلبُ الأدب؟ قال: لأنْ[8] تموتَ طالبًا للأدب خيرٌ من أن تعيش قانعًا بالجهل: قال: فإلى متى يَحسُن بى ذلك؟ قال: ما حَسُنت بك الحياة.

وقال الزُّهْرِيّ: ما سمعتُ كلامًا أوْجزَ من كلام عبد الملك بن مروان لِوَلَدِه حيث يقول: اطلبوا معيشةً لا يَقدر عليها سلطانٌ جائرٌ؛ قيل: ما هى؟ قال: الأدب.

وقال بُزُرْجُمِهْر: ياليت شِعرى أىّ شىء أدرَك من فاتَه الأدب! أمْ أىّ شىء فات من أدرَك الأدب ومادَّته من الكُتُب!

* * *

وقد أهدى بعض الكُتّاب إلى صديق له دفترًا وكتب له: هديتى هذه - أعزّك الله - تزكو[9] على

---

(١) المقسطون: من أقسط فى الأمر؛ إذا عدل.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) المحاسن والأضداد: «فإنك لا ترى وتسمع».

(٤) المحاسن والأضداد: «نافس».

(٥) المحاسن والأضداد: «من الناس».

(٦) المحاسن والأضداد: «وقال».

(٧) المحاسن والأضداد: «بنا».

(٨) ك: «لئن»، وصوابه من المحاسن والأضداد.

(٩) تزكو: تنمو.

الإنفاق، وتربو على الكد[١]، لا تفسدها العوارى[٢]، ولا تُخلِقُها كثرةُ التقليب؛ وهى أنسٌ فى الليل والنهار، والسَّفر والحضر، تصلح للدنيا والآخرة. تؤنس فى الخلوة، وتمتع فى الوحدة. مسامرٌ مساعدٌ، ومحدِّثٌ مطواع، ونديمٌ صديق.

وقال بعضهم: الكتب بساتين العلماء.

وقال آخر: الكتاب جليس لا مئونة له.

وقال الفضل بن سهل للمأمون وهو بدمشق بدير مُرّان مشرف على غوطتها: يا أمير المؤمنين، هل رأيت لحسنها شبيهًا فى شىء من مُلك العرب؟ يعنى الغوطة. قال: بلى والله، كتاب فيه أدبٌ يجلو الأفهام، ويُزكى القلوب، ويؤنس الأنفس، أحسن منها.

* * *

وقال الجاحظ: الكتاب نعم الذُّخر والعقدة[٣]، ونعم الجليس والقعدة[٤]، ونعم النُّشرة[٥] والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة،ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والتنزيل. الكتاب وعاءٌ مُلِئَ علمًا، وظرفٌ حُشِىَ ظَرفًا، إن شئت كان أعيَا من باقِل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل؛ وإن شئت ضَحِكَت من نَوادره، وإن شئت بكيت من مواعظه. ومن لك بوعظ مُلِه[٦]، وبناسكٍ فاتك، وناطق أخرَسَ! ومن لك بطبيبٍ أعرابى، ورُومىٍّ وهندى، وفارسىٍّ ويونانىّ، ونديمٍ[٧] مولَّد، ووصيِّ مُمتِع! ومن لك بشىء يجمع الأوّل والآخر، والناقصَ والوافِى، والشاهدَ والغائب، والرفيعَ والوضيع، والغَثَّ والسَّمين، والشَّكل وخلافه، والجنس وضدَّه!

وبعد، فما رأيتُ بستانًا يُحْمَلُ فى رُدْن[٨]، ورَوضَةً تُنقل فى حِجر، ينطقُ عن الموتى، ويُترجم عن الأحياء، غيره.

ومن لك بمؤنسٍ لا ينام إلّا بنومِك، ولا يَنْطِق إلّا بما تهوى، آمنُ من فى الأرض، وأكتَمُ للسِّرّ من صاحب السِّر، وأحفظُ للوَديعة من أرباب الوديعة.

ولا أعلم جارًا أبرّ، ولا خليطًا أنصَفْ، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفايةً ولا عناية، ولا أقلَّ إملالاً[٩] وإبرامًا، ولا أبعد عن مِرَاءٍ، ولا أترك لشغب، ولا أزهد فى جِدال،

---

(١) ك: «الكسد»، وما أثبتّه من المحاسن والأضداد.

(٢) فى إحدى نسخ المحاسن والأضداد «العوادى».

(٣) العقدة: ما فيه بلاغ الرجل وكفايته.

(٤) الجاحظ فى المحاسن: «العمدة» وفى الحيوان «العدة».

(٥) النشرة: النسيم.

(٦) ك: «مثله» وما أثبته من المحاسن والأضداد والحيوان.

(٧) الحيوان ١: ٣٩ ونهاية الأرب ٧: ١٧: «وقديم».

(٨) الردن، بالضم: أصل الكم والجمع أردان.

(٩) ك: «مالالا» تصحيف.

ولا أكفَّ عن قتال من كتاب ! ولا أعمَّ بيانًا، ولا أحسن مؤاتاةً، ولا أعجل مكافأة، ولا شجرة أطول عُمرًا ولا أطيب ثمرًا ، ولا أقرب مُجتنًى، ولا أسرع إدراكًا، ولا أوجَدَ فى كلّ إبَّانٍ[١] من كتاب، ولا أعلمُ نِتاجًا فى حَدَاثة سِنّه، وقُربِ ميلادِه، ورُخص ثَمنِه، وإمكان وجُوده، يَجْمَعُ من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان، اللطيفة، ومن الحكم الرَّفيعة، والمذاهب القديمة، والتجارب الحكيمة، الأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المترامية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمعه كتاب[٢].

ولولا الحِكَمُ المخطوطة[٣]، والكُتُب المدوَّنة، لبَطَل أكثرُ العِلم، ولَغلَب سُلطانُ النِّسيان سلطانَ الذِّكر، ولما كان للناس مَفزَع إلى موضع استذكار؛ ولو لم يتمّ[٤] ذلك لحُرِمنا أكثر النَّفع.

ومَن لك [بمن] لا يبتدئك فى حالِ شُغلِك، ولا فى أوقات عَدَمِ نَشاطِك، ولا يُحوجُك إلى التمحُّل والتذمُّم ! ومَن لك بزائر إن شئتَ جعلتَ زيارته غِبًّا، ووِرْده خِمسا[٥] وإن شئت لزِمَكَ لزوم ظِلِّك !

والكتاب هو الجليس الذى لا يُطريك، والصديقُ الذى لا يقليك، والرفيقُ الذى لا يُملُّك، والمُستميح[٦] الذى لا يُؤذِيك، والجارُ الذى لا يَستبطيك، والصاحبِ الذى لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق. والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوَّد بيانك، وفخَّم ألفاظك، وعَمّر صدرك، وحباك تعظيم الأقوام، ومنحك صداقة الملوك؛ يطيعك فى الليل طاعته بالنهار، وفى السفر طاعته فى الحضر وهو المعلّم الذى إن افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعتَ عنه المادّة، لم يقطع عنك الفائدة، وإن عُزِلتَ لم يدع طاعَتك، وإن هبَّت عليك ريحُ أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت متعلقًا به ومتَّصلاً منه بأدنى حبل، لم تضطرك[٧] معه وحشةُ الوحدة إلى جليس السوء. وإن أمثل ما يقطع به الفُرّاغُ نهارهم، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم، نظرة فى كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد أبدًا فى تجربة وعقل ومروءة، وصون عِرض، وإصلاح دين ومال، ورَبّ صنيعة وابتداء إنعام.

ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك إلّا منعُهُ لك من الجلوس على بابك، ونظرك إلى المارّة بك، مع ما فى ذلك من التعرُّض[٨] للحقوق التى تلزم، ومن فُضُول النَّظر، وملابسة صغار الناس، ومن خطور[٩] ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأحوالهم الردية، وطرائقهم[١٠]

---

(١) إبان كل شىء: وقته وحينه الذى يكون فيه.
(٢) ك: «ما يجمع من كتاب» وما أثبته من المحاسن والأضداد.
(٣) المحاسن والأضداد «المحفوظة».
(٤) ك: «وأتم». وما أثبته من المحاسن والأضداد.
(٥) الخمس فى الأصل: من إظماء الإبل؛ وهو أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع.
(٦) المستميح: طالب العطاء فى رفق.
(٧) ك: «تضرك» والوجه ما أثبته من الحيوان.
(٨) ك: «التعريض» والصواب ما أثبته من المحاسن والأضداد.
(٩) الحيوان: «حضور».
(١٠) المحاسن والأضداد: «وجهالاتهم».

المذمومة، وأفعالهم الخبيثة القبيحة؛ لكان فى ذلك السلامة ثم الغنيمة،وإخراز[١] الأصل مع استفادة الفرع. ولو لم يكن فى ذلك إلّا أنه يَشغَلُك عن سُخف المنى، وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب وكلّ ما أشبهه، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبغ النِّعمة، وأعظم المِنّة.

وهو الذى يزيد فى العقل ويشحذه، ويداويه ويهبِّه، وينفى الخَبَث عنه، ويفيد العلم، ويصادق بينك وبين الحجّة، ويقُودُك للأخذ بالثقة، ويعمر الحال، ويكسب المآل. وهو مَنْبَهَة[٢] للمورِّث، وكنز عند الوارث، غير أنه كنزٌ لا زكاة فيه، ولا حقَّ للسلطان يخرج منه. هو كالضَّيعة التى لا تحتاج إلى سقى ولا إسجال بإيغار[٣]، ولا إلى شرط ولا إكثار ، وليس عليها عشرٌ للسلطان ولا خراجٌ.

ولولا ما رَسَمت لنا الأوائل فى كُتُبِها، وخَلَّدت مِن عجيب حِكَمها، ودَوَّنت من أنواع سِيَرها؛ حتى شاهدنا بها من غاب عنّا، وفتحنا بها كلَّ منغلِقٍ علينا؛ جمعنا فى قليلنا كثيرَهم، وأدركنا ما لم نُدركه إلّا بهم، لقد كان بُخِسَ حَظَّنا منه. وأكثر كُتبهم نَفعًا، وأشرف منها حظًّا، وأحسنُ موقعًا؛ كُتُب الله عزّ وجلّ التى فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كلّ عبرة، وتعريفُ كلّ سيئة وحسنة. ومازالت كتب الله جلّ وعلا فى الألواح والصُّحُف والمصاحف، فقال جلّ ذكره: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فى صُحُفِ مُوسَى. وإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى﴾[٤]، فذكر صحف موسى الموجودة، وصحف إبراهيم البائدة، وقال: ﴿الم ذَلِكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيهِ﴾[٥] وقال عزّ وجلّ: ﴿مَا فَرَّطنَا فى الكتَابِ مِنْ شَىءٍ﴾[٦]. وقال: ﴿كِرامًا كاتبين﴾[٧]. وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾[٨]. وقال: ﴿اقرأ كِتَابَك كَفَى بِنَفْسِكَ اليومَ عَلَيْكَ حَسيبا﴾[٩].

ولو لم تكن تُكتَب أعمالهم لكانت محفوظةً لا يدخل ذلك الحفظ نسيان، ولكنه تعالى جَدُّه، علم أنَّ نسخَه أوكدُ وأبلغُ وأهيَبُ فى الصّدور، فقال جلّ ذكرُه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾[١٠].

ولو شاء الله أن يجعل البشارات بالمرسلين على الألسنة ولم يودِعها الكتب لفَعل ، ولكنه تبارك وتعالى عَلِمَ أن ذلك أتمُّ وأبلغ وأكمَلُ وأجمعُ. وفى قول سليمان عليه السلام: ﴿اذْهَبْ بِكتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾[١١] ، وقد كان عنده من يبلِّغ الرسالة على تمامها من عِفريت وإنسىٍّ وغيرهما، فرأى الكتاب أَبْهَى وأحسنَ، وأكرمَ وأفخمَ، وأنبلَ من الرسالة[١٢]. ولو شاء النبىُّ ﷺ، ألّا يكتب إلى قيصر وكسرى والنَّجاشى والمقوقس، وإلى ابْنَى الجُلُنْدى[١٣] وإلى العَباهِلة من حِمْيَر، وإلى هَوذة،

---

(١) ك: «وإخزان» وما أثبته من المحاسن.

(٢) فى ك: «شبهة» تحريف، والمنبهة: المشرفة والمعلاة، من النباهة؛ وهى ضد الخمول.

(٣) الإسجال، من أسجل الحوض، إذا ملأه، والإيغار: استيفاء العامل الخراج.

(٤) سورة النجم ٣٦، ٣٧.

(٥) سورة البقرة ١، ٢.

(٦) سورة الأنعام ٣٨.

(٧) سورة الانفطار ١١.

(٨) سورة الإنشقاق ١٠.

(٩) سورة الإسراء ١٤.

(١٠) سورة الجاثية ٢٩.

(١١) سورة النمل ٢٨.

(١٢) فى الكلام حذف المبتدأ، والتقدير: «وفى قول سليمان... ما ينوه بشأن الكتاب». والغرض من الحذف التفخيم.

(١٣) هما جيفر وعمرو ملكا عمان، إمتاع الأسماع ١: ٤٣٣.

والملوك العظماء والسادة النجباء، لَفَعَل، ولَوَجَد المبلِّغ المحصُومَ من الخطأ والزلّل، والتبدُّل؛ ولكنَّه ﷺ عَلِم أنّ الكتابَ أشبهُ بتلْك الحالة، وأليق بتلك المراتب، وأبْلَغُ فى تعظيم ما حواه الكتاب.

وحَمْلُه وإن كَثُر ورقُه، فليس مما يُملُّ: لأنَّه وإن كان كتابًا واحدًا، فإنّه كُتبٌ كثيرة، فإن أراد قراءة الجميع لم يصل على الباب الأوَّل حتى يهجم على الثانى، ولا الثالث حتى يَهجُم على الرابع، فهو أبدًا مستفيد ومستطرِف[١]، وبعضُه يكون حاثًّا لبعض، ولايزال نشاطُه زائدًا؛ متى خرج من أثرٍ صار فى خبر، حتى يخرج من خبر إلى شِعْر، ومن الشعر إلى النّوادر، ومن النّوادر إلى نُتف وإلى مواعظ، حتى يُفضىَ بهِ إلى مَزْجٍ وفكاهة، ومُلَحٍ ومضَاحك وخُرافة. وكانوا يجعلون الكتابَ نَقرا فى الصخور، ونقشًا فى الحجارة، وحَلقة مركّبة فى البُنيان - وربما كان الكتاب هو الناقئ[٢]، وربما كان الكتابُ هو المحفور - إذا كان ذلك تاريخًا لأمر جسيم، أو عهدًا لأمر[٣] عظيم، أو موعظةً يُرتَجى نفعُها، أو إحياءَ شرف يريدون تخليد ذكره؛ كما كَتَبوا على قُبّة غمدان[٤]، وعلى باب القَيْرَوان، وعلى باب سَمَرقَنْد، وعلى عمود مأرب[٥]، وعلى رُكْن المُشقَّر[٦] وعلى الأبلق[٧] الفرد من تَيْماء، وعلى باب الرّها[٨] يَعْمَدون إلى المواضع الرفيعة المشهورة، والأماكن المذكورة، ويضعون الخطّ فى أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدُّروس، وأجدَر أن يراها من مرَّ، ولا تُنسى على مرور الدهور. وعَمَدُوا إلى الرّسوم ونقوش الخواتيم، فجعلوها سببًا لحفظ الأموال والخزائن؛ ولولاها لدخل على الناس الضَّرَرُ الكبير. ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب أكثره، ولبَطَلت معرفةُ التضاعيف؛ ونفع الحساب معلوم، والخَلّة فى موضع فقده معروفة، قال الله عزّ وجَلّ: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقمرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعلموا عددَ السنينَ والحِسابَ﴾[٩].

ولولا الكتبُ المدوَّنة والأخبار المخلَّدة، والحِكَم المخطوطة[١٠] التى تجمع الحساب وغير الحساب، لبطل أكثرُ العلم. ولولا الكتابُ لم يكن يعلم أهلُ الرقَّة والمَوْصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة أو حَدَث بالكوفة فى بياض يوم؛ حتى تكون الحادثةُ بالكوفة عدوةً، فيعلَمُها أهلُ البصرة قبل المساء، وذلك مشهور فى الحمام إذا أُرْسِلت.

وكانت العرب تَعتمِد[١١] فى مآثرها على الشِّعر الموزون والكلام المقفّى ، وكان ذلك ديوانها، على

---

(١) ك: «مستظرف».
(٢) ك: «البانى». وما أثبته من المحاسن والأضداد.
(٣) ك: «عهد عظيم» وما أثبته من المحاسن والأضداد.
(٤) غمدان: قصر بصنعاء، بناه أليشرح بن يحصب.
(٥) مأرب: قصر بين صنعاء وحضرموت من بلاد اليمن.
(٦) المشقر: حصن بالبحرين.
(٧) الأبلق القرد: حصن السموءل بن عاديا ، وتيماء: بلد بين الحجاز والشام.
(٨) الرها: مدينة بالجزيرة.
(٩) سورة يونس ٥.
(١٠) المحاسن والأضداد: «المحفوظة».
(١١) ك: «تعقد» وما أثبته عن الحيوان.

أنّ الشِّعر يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب، وفضيلة الأثر على السيّد المرغوب إليه. وكانت العجم تقيّد مآثرها بالبنيان، فبنت مِثلَ بناء أردَشِير، وبناء إصْطَخْر وبيضاءِ المدائن، وشِيرِين[١]، والمدُن والحصون، والقناطر والجسور.

ثم إن العرب شاركَت العجم فى البنيان، وتفرّدت بالشِّعر، فلها من البنيان غُمدان، وكعبةُ[٢] نجران، وقصرُ مأرِب، وقصر شَعُوب[٣] والأبلَق الفَرْد، وغيرُ ذلك من البنيان.

وتصنيفُ الكتُب أشدّ تقييدًا للمآثر على مرّ الأيّام والدّهور من البنيان؛ لأنّ البنيان لا محالةَ يدرس وتعفو رسومُه، والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن، فهو أبدًا جديد، والناظر فيه مستفيد. وهو أبْلَغُ فى تحصيل المآثر من البنيان والتّصاوير. وأهلُ العلم والنظر وأصحابُ الفكر والعبَر، والعلماء بمخارج المِلَل وأرباب النِّحَل وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء؛ يكتبون كتب الظرفاء والمِلَحاء، وكتب الملاهى والفكاهات، وكتب أصحاب المرَاءِ والخصومات، وكتب أصحاب العَصبيَّةِ وحَمِيةِ الجاهليَّةِ؛ فمنهم من يفرِّط [فى] التعلّم فى أيام جهلِه، وخمول ذِكره، وحداثةِ سنّه.

ولولا جِيادُ الكتُب وحِسانُها لما تحرَّكَتْ هِمَمُ هؤلاء لطلب العلم، ونازَعَتْ إلى حبّ الأدب، وأنِفَتْ من حال الجهل، وأن تكون فى غمار الحُشْوَة[٤]، ويَدخل عليهم الضرَرُ والحقارةُ وسوءُ الحال بما عسى أن يكون لا يمكن الإخبار عن مقداره إلّا بالكلام الكثير، ولذلك قال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه: تفقّهوا قبل أن تَسُودوا. وقال بعض الحكماء: ذهبت المكارمُ إلّا من الكتب.

* * *

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّك الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بالْقَلَمِ﴾[٥]. فوصف نفسَه تعالى جدُّه بأنه علّم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرَم، واعتدَّ بذلك فى نِعَمِهِ العظام، وأياديه الجسام، ووضع القلمَ فى المكان الرفيع، ونوّهَ بذكرِه، وأقسمَ به كما أقسم بما يخطّ به، فقال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وما يَسْطرونَ﴾[٦].

والقلم أرجَح من اللسان؛ لأن كتابته تُقرأ بكلّ مكان، وَيَظْهر ما فيه على كلّ لسان، ويوجد مع كلّ زمان. ومناقلة اللسان وهدِيّته لا يجاوزان مجلسَ صاحبه ومبلغ صوتِه، والكتاب يخاطبك من بعيد؛ وقد قالوا: القلمُ أحدُ اللّسانين. وقالوا: كلُّ مَنْ عَرَف النعمة فى بيان اللسان، كان أعرفَ بفضل النعمة فى بيان القلم، وقد يعترى القلم ما يعترى المؤدِّب عند ضَرْبِه وعقابِه، فما أكثرَ من يَعزِم على عشرة أسواط فيضرب مائة، لأنّه ابتدأ الضربَ وهو ساكن الطباع، فأراه السكون أنّ الصواب فى الإقلال، فلمّا ضَرَب تحرّك دمهُ فأشاع الحرارةَ فيه، وزاد فى غضبه، فأراه الغضب أنّ الرأىَ فى الإكثار، وكذا صاحب القلم، فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدارَ سطرين فيكتب عشرة!

---

(١) قصر شيرين: قريب من قرمسين فى طريق بغداد.

(٢) كعبة نجران: بنية بناها بنو عبد المدان على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة.

(٣) قصر شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع.

(٤) الحشوة: رذال الناس. (٥) سورة العلق ٣، ٤. (٦) سورة القلم ١.

وقد قيل: القلم الشاهد والغائب، يُقْرَأ بكلّ لسان، وفى كلّ زمان.

وقالوا: ظاهر عقول الرجال فى اختيارها، ومدوَّن فى أطراف أقلامها؛ ومصباح الكلام حسن الاختيار.

وقالوا: القلم مَجهّز جيوش الكلام، يخدم الإرادة، ولا يَمَلّ الاستزادة، ويسكت واقفًا، وينطق سائرًا على الأرض، بياضه مظلم، وسواده مضىء؛ وقال الشاعر[١]:

قومٌ إذا خافوا عداوةَ مَعشَرٍ ... سَفَكُوا الدِّما بأسِنَّة الأقلام
وَلمشقةٌ من كاتب بمدادِه ... أمضَى وأقطعُ من صَنيعِ حُسَام

[الكامل]

وقال آخر أيضًا:

لَعمرك ما السيفُ سيفُ الكَمِيّ ... بأخوَف من قلَمِ الكاتبِ
له غايةٌ إن تأمّلْتَها ... ظهَرْتَ على سِرّه الغائب
أداةُ المنيَّةِ فى جانِبَيْهِ ... فمِنْ مثله رَهبةُ الراهبِ
سِنانُ المَنيَّةِ فى جانبٍ ... وسَيفُ المنيّةِ فى جانبِ
ألم تر فى صَدرِهِ كالسِّنانِ ... وفى الرِّدْفِ كالمُرْهَفِ القاضب!
فيجرى به الكفُّ فى حالةٍ ... على هيئةِ الطاعن الضارب

[المتقارب]

وقال آخر أيضًا ملغزًا:

وأعجفَ رِجْلاه فى رأسِهِ ... يَطيرُ حَثيثًا على الأملسِ
مطاياه من تحته الإصبعان ... ولولا مطاياهُ لم يُلمَسِ

[الطويل]

وقال آخر سامحه الله:[٢]

وأعجفَ مُنشقّ الشباةِ مُقلّمٍ ... مُوَشّى القَرَا طاوى الحشا أسوَدِ الفمِ[٣]
إذا هو أضحى فى الدواةِ فأعجمٌ ... ويُضْحى فصيحًا فى يَدِى غير أعجمِ
يناجى مناجاةَ أغرّ مُرَزّأٍ ... متى أستمح معروفهُ يتبسّمِ

[الوافر]

وقال آخر رحمه الله:[٤]

لك القلمُ الّذى لم يجر يومًا ... بغايَةِ منطقٍ فَكَبا بِعِىّ

---

(١) لابن الرومى، ديوانه الورقة ١٦، وهى أيضا فى زهر الأدب ٤٣٢ مع اختلاف فى الرواية.
(٢) الأبيات فى أدب الكتاب للصولى ٨١ مع اختلاف فى الرواية، ونَسَبها إلى الفضفاض.
(٣) القرا: الظهر. (٤) الأبيات فى أدب الكتاب للصولى ٨٥ مع اختلاف الرواية.

ومبتسمٌ عن القِرطاس يأسُو ... ويَجرحُ، وهْو ذو بالٍ رَخىٌّ
فما المِقدادُ أعْضَبَ من شَباهُ ... ولا الصَّمْصام سَيْفُ المُذْحِجىّ

[مخلع البسيط]

وقال وأجاد:

أحسنُ من غفلةِ الرقيبِ ... ولَحْظةِ الوَعْدِ مِنْ حبيبِ
والنغْمِ والنقْرِ من كَعابٍ ... مُصيبةِ العودِ والقضيبِ
ومن بَناتِ الكُروم راحاً ... فى راحتَىْ شادِنٍ رَبيبِ
كَتْبُ أديبٍ إلى أديبٍ ... طالتْ به مدّة المغيبِ
فنمَّقَتْ كفُّهُ سطوراً ... تُنَمِّقُ الصَّبرَ فى القُلُوبِ
تتركُ من سُطِّرتْ إليه ... أطرَب مِنْ عَاشِقٍ طَرُوب

[البسيط]

وقال آخر:

إذا استمدَّت صرفتُ الطرفَ عن يدِها ... خوفًا عليها لما أخْشَى من التُّهمِ
كأنما قَابَلَ القرطاسَ إذا مَشَقَتْ ... منها ثلاثةُ أقلامٍ على قلم[1]

[مجزوء الوافر]

وقال أشجع فى جعفر البرمكىّ:

إذا أخذت أناملهُ ... تبيَّن فَضْلُهُ الْقَلَمَا
تطأطأ كلُّ مرتفعٍ ... لفضل الكتب مُذْنَجَمَا

[مجزوء الوافر]

يقدِّم ويؤخِّر، أراد: إذا أخذتْ أناملهُ الْقَلَم تبيَّن فضلهُ.

وفى الخط قال: نظر المأمون إلى مؤامرة بخَطٍّ حَسَن، فقال: لله درّ القلم، كيف يحوك وَشْىَ المملكة!

وقال يحيى بن خالد البرمَكِىّ: الخطُّ صورةٌ رُوحهُا البيان، ويدها السّرعة، وقدماها التَّسوية، وجَوارحُها معرفة الفصول.

وقال فى مثله رحمه الله تعالى:

تقولُ وقد كتبْتُ دقيقَ خطِّى ... فديتُك مَّم تَجتَنبُ الجليلا
فقلتُ لها: نحَلْتُ فصار خَطِّى ... دقيقًا مثلَ صاحبهِ نحيلَا

[الوافر]

* * *

(١) المشق: مد أحرف الكتابة.

وقال على بن الجَهْم فى صفة الكُتُب: إذا غشيَنى النُّعاس فى غير وقت النَّوم تناولت كتابًا، فأجدُ اهتزازى من الفوائد [التى] فيه، والأريحيّة التى تعتادنى وتعترينى من سرور الاستنباه[١] وعزّ التبيين؛ أشدّ إيقاظًا من نهيق الحمار، وهَدَّة الهَدم[٢]. وإنى إذا استحسنت كتابًا واستجدتُه رجوتُ فيه فائدةً؛ فلو ترانى ساعةً بعد ساعة أنظرُكم بَقِىَ من ورقه، مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قِبَله، وإن كان الكتاب عظيمَ الحَجْم، وكان الورق كبيرَ القدر، [فقد تمَّ عيشى، وعظم سرورى][٣].

وذَكَر له العُتبى كتابًا لبعض القدماء، فقال: لولا طوله لنسخته؛ فقال: ما رغبتى إلّا فيما زهدتَ عنه، وما قرأت كتابًا كبيرًا فأخلانى من فائدة، ولا أحْصِى كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت فيها[٤].

وقال ابنُ داحة: كان عبد الله بنُ عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يجالس الناس، ونزل مَقْبَرة من المقابر، وكان لا يكاد يُرى إلّا وفى يده كتاب يقرأ فيه[٥]، فسئل عن ذلك وعن نزوله المَقبرَة، فقال: لم أرَ أوعظَ مِن قَبْر، ولا آنَسَ من كتاب، ولا أسلم من الوَحْدَة[٦].

وقيل لابن داحة وقد أخرج إليه كتابُ أبى الشَّمْقَمَق وهو فى جلود كُوفيّة، ودفّتين[٧] طائفيَّتيْن لا بخطٍّ عجيب، فقال: لقد ضيّع درهَمه صاحبُ هذا الكتاب، وقال: والله إنّ القلم ليعطيكم مثلَ ما تعطُونه؛ ولو استطعت أن أودِعَهُ سُوَيداءَ قلبى وأجعلَه مخطوطًا على ناظرىَّ لفعلت.

وقال بعضهم: كنت عند بعض العلماء، وكنت أكتبُ عنه بعضًا وأدعُ بعضًا، فقال لى: اكتب كلَّ ما تَسمع، فإنّ أخسَّ ما تسمع خير من مكانه أبيض.

وقيل:

أما لو أعِى كُلَّ ما أسمَعُ ... وأحفَظ مِن ذاك ما أجْمَعُ[٨]
ولم أستفدْ غير ما قد جمعتُ ... لقيل هو العالمُ المُقْنَعُ[٩]
ولكنّ نفسى إلى كل نو ... عٍ من العلم تسمعُهُ تنزعُ
فلا أنا أحفظ ما قد جمعتُ ... ، ولا أنا مِن جمعِه أشبَعُ[١٠]
ومَنْ يَكُ فى عِلْمِه هكذا ... يُرَى دَهْرَهُ القهقرى يَرجعُ

---

(١) الحيوان ١: ٥٢، «الاستبانة».
(٢) الهدم: الصوت.
(٣) تكملة من الحيوان ١: ٥٢.
(٤) الحيوان ١: ٥٣، ٥٤.
(٥) الحيوان: «يقرؤه».
(٦) الحيوان ١: ٦٢؛ وذكر بعدها: «فقيل له: قد جاء فى الوحدة ما جاء! فقال: ما أفسدها للجاهل، وأصلحها للعاقل».
(٧) فى ك: «وورقتين طابقتين ما بخط»، وما أثبته من الحيوان ١: ٦١.
(٨) محاسن الجاحظ ١٣، ونسبها إلى الأصمعى، والحيوان ١: ٥٩، ونسبها إلى محمد بن يسير.
(٩) الحيوان: «المصقع».
(١٠) بعده فى الحيوان:
وَأحْصَرُ بالعِىّ فى مَجْلِسى ... وَعِلْمى فى الكُتْبِ مُسْتَوْدَعُ

إذا لم تكن حافظًا واعيًا فجمعك للكُتْبِ لا ينفعُ

[المتقارب]

وقال بعضهم: الحفظ مع الإقلال أمكَنُ، ومع الإكثار أبعد؛ وهو للطبائع مع رطوبة القضيبِ أقبل.

ومنها قول الشاعر:

أتانى هواها قبلَ أن أعرِف الهوى فصادف قلبى خاليًا فتمكَّنَا[١]

[الطويل]

وقيل: التعلُّم فى الصِّغَر، كالنَّقْش فى الحَجَر؛ فسمع ذلك الأحنف فقال: الكبيرُ أكثرُ عقلًا، ولكنه أكثرُ شغلًا.

وكما قال:

وإنّ من أدَّبتهُ فى الصِّبا كالعُودِ يُسقَى الماءَ فى غرْسِهِ[٢]
حتى تراه مُورِقًا ناضِرًا بعد الذى أبصرتَ من يُبسِهِ

[السريع]

والصبىّ عَلَى الصِّبا أفهَمُ، وله آلف، وإليه أنزَع، وكذلك العالم على العلم، والجاهل على الجهل، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾[٣]؛ لأن الإنسان عن الإنسان أفهَم، وطباعه بطباعه آنَس، ومن التقط كتابًا جامعًا كان له غُنْمُه، وعلى مؤلِّفه غُرْمُه، وكان له نفعُهُ، وعلى صاحبه كَدُّهُ، ومتى ظفر بمثله صاحبُ عِلم فهو وادع جامٌّ، ومؤلّفه متعوب مكدود، وقد كفِىَ مؤنةَ جمعه وتتبُّعه، وأغناه عن طول التفكير، واستنفاد العمر، وكان عليه أن يجعل ذلك من التوفيق والتسديد إذا بالغ صاحبه فى تصنيفه، وأجاد فى اختياره.

قال أبو هَفّان:

إذا آنسَ الناسَ ما يجمَعون أنِستُ بما يجمَعُ الدَّفتر
له وَطَرى ولَهُ لَذَّتى على الكأس؛ والكأس لا تُحْصَرُ
تدور على الشَّرْب محمودةً لها الوردُ الخرقُ والمُصْدِرُ[٤]
يُغنِّيهمُ ساحرُ المُقْلَتَيْن كشمس الضُّحَى طَرْفُه أحوَرُ
ورَيحانهم طِيبُ أخلاقِهم وعندهُم الوَرْدُ والعَبْهَرُ[٥]
على أنَّ همتَنا فى الحروب فتلك الصِّناعةُ والمتجَرُ

[المتقارب]

---

(١) للمجنون، ديوانه ٢٨٣.

(٢) الحيوان ١: ٤٠، ٤١، ونسبها إلى صالح بن عبدالقدوس.

(٣) سورة الأنعام ٩.

(٤) الخرق: الكريم.

(٥) ك: «المبقر».

قال: لمّا قلتها عرضتُها على ابن دِهقان، فقال: إذا سمع بها الخليفة استغنى بها عن النُّدَماء.

وأنشد غيرُه:

نعمَ المحدّثُ والرفيق كتابُ ... تلهو به إن خانَكَ الأصحابُ
لامفشيًا سرًّا إذا استودَعتَهُ ... وتُنَالُ منه حكمةٌ وصوابُ

[الكامل]

وقال آخر:

نعمَ الجليس بعَقْب قَعْدةِ ضَجْرةٍ ... للمَلْكِ والأدباءِ والكتّابِ
ورَقٌ تضمّن من خطوط أناملٍ ... مَرعًى من الأخبار والآداب
يَخلُو به مَنْ مَلّ من أصحابه ... فيقالُ خِلوٌ، وهو فى الأصحاب

[الكامل]

قال: وأنشدَنا أبو الحسن على بن هارون بن يحيى النديم رحمه الله:

إذا ما خلوتُ من المؤنِسينَ ... جعلتُ المحدّثَ لى دَفترى
فلم أخلُ من شاعرٍ محسنٍ ... وَمِنْ مضحكٍ طَيِّب مُنْدِرِ[1]
ومن حِكَمٍ بين أثنائها ... فوائدُ للناظر المُفْكِرِ
وإن ضاق صدرى بأسراره ... وأودَعتُهُ السرَّ لم يُظْهِرِ
وإن صرّحَ الشعر باسم الحبيبِ ... فما أختَشِيه ولم أحْصَرِ
وإن عُذْتُ من ضَجْرَةٍ بالهجاء ... وَلَوْ فى الخَلِيفَةُ لم أحذرِ
فنادَيتُ منه كريمَ المَغيب ... لنَدْمانِه طيّبَ المَحْضَرِ
فلستُ أُرى مُؤثرًا ما حَييتُ ... عليه نديمًا إلى المحشَرِ

[المتقارب]

وقال فى الذِّهن:

إذا ما غَدَتْ طَلّابةُ العلم ماهَا ... من العلم إلّا ما يُخلد فى الكُتْب
غَدَوْتُ بتشميرٍ وجِدٍّ عليهمُ ... ومِحبرتى سمعى ودَفترُها قلبى

[البسيط]

وقال آخر:

يأيها الطالب الآداب مبتدرًا ... لا تسْهُ عن حَمْلكَ الألواح للأدبِ
فحمْلُها أدبٌ تحوى به أدبًا ... وسوفَ تَنْقُلُ ما فيها إلى الكُتُبِ

---

(١) المندر: من يأتى بالنادر من القول أو الفعل. وفى ك: «مبدر» تحريف.

وليس فى كـلّ وقت ممكنًـا قلمٌ ودَفترٌ يا عـديم المِثل فى الحسَبِ

* * *

وكلُّ ما تقدَّم ذكرُه من مناقب الكُتُب ووصفِ محاسنها؛ فهو دون ما يستحقُّه كتابُنا هذا؛ فقد اشتمل على محاسن الأخبار، وطرائف الآثار؛ وترجمناه بكتاب «المحاسن والمساوئ»؛ لأن المصلحة فى ابتداء أمر الدنيا إلى انقضاء مدّتها، امتزاجُ الخير بالشرّ، والضارِّ بالنافع، والمكروه بالمحبوب، ولو كان الشرُّ صِرْفًا مَحْضًا لَهَلَك الخَلْق، ولو كان الخيرُ مَحْضًا لسقطت المحبَّةُ، وتقَطَّعتْ أسبابُ الفِكْرة، ومتى بطل التخيُّر، وذهب التميُّز، لم يكن صبرٌ على مكروه، ولا شكرٌ على محبوب، ولا تعَامُل ولا تنافس فى درجة، وما توفيقنا إلّا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وافتتحنا كتابَنا هذا بذكر النبى ﷺ، وعلى آله وأصحابه الطيِّبين الطاهرين الأبرار الأخيار، لما رجَوْنا فيه من الفضل والبَركة، واليُمن والتوفيق. والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على محمد وإخوته من النبيِّين وآله الطيبين أجمعين.

obeikandl.com